المشرق

رحلة حديثة الى صنا الحجر والمنزلة

للاب الملفان الحوري لوسيان لوروا

كنتُ منذ ثلاث سنين تريل برت سعيد وانا لا ازال اترقّب الزمن الموافق لزيارة آثار مدينة جليلة تكرَّر ذكرها في الاسفار المقدَّسة واتّخذها فراعنة مصر مرارًا كقاعدةٍ لمملكتهم ألا وهي طانيس المعروفة اليوم بصان الحجر حتى تيسَّر لي الامر منذ عهد قريب ففزتُ بالمرام وذلك في فصل الصيف من سنة ١٩٠١

فبعد ان اتّخذتُ لتتمّة المقصود كلّ الاعلامات اللازمة واعددتُ الاهبة للسَّفر طلبتُ لي رفقةً اسير واياهم الى صان فأسعدني الحظّ بان لقيتُ خمسةً من ادباء النزّالة اثنان منهم من مستخدمي شركة قناة سويس ثم المسيو پ. وولداهُ فرنسوا وارنست. وكان احد الملّاحين الاعراب اسمهُ الرئيس عيد وعدنا بان يأجرنا لهذه السفرة قاربهُ زكبهُ من محطّة كربوتي الى صان. وكان هذا القارب كبيرًا في مؤخرهِ غرفةٌ يمكننا ان نقضي فيها الليل

فلمّا كان اليوم المعهود ركبنا القطار من برت سعيد ومعنا من الزاد ما يكفي لثلاثة ايّام وتسلّحنا ببندقيّتين او ثلاث واخذنا معنا اداتين للتصوير الشمسي. فما لبثنا ان وصلنا الى محطّة كربوتي وهي قرية صغيرة على ضفّة بحيرة المنزلة. فكان اوّل اهتمامنا بان نسأل عن الرئيس عيد فلم نقف لهُ ولقاربهِ على اثر. بيد انهُ لحسن طالعنا وجدنا هناك

ذهبيّةً لأعرابيَّين كانت على وشك السفر الى دمياط فأقنعنا صاحبَيْها بان ينقلانا الى صان بأجرة معلومة فرضيا وسرنا على الطاير الميمون

وكان سفرنا على بحيرة المنزلة جنوبيًّا بميلة الى الغرب. وهذه البحيرة تمتدُّ طولًا في مسافة نحو مئة كيلومتر امَّا عرضها فيختلف. وكانت سابقًا تبلغ مدينة بلوزة القديمة ولا يفصلها عن البحر سوى كثبان من الرمل والبحر مع ذلك يتَّصل بها فتدخلها مياههُ المالحة من فوهتين او بوغاصَيْن. واذا نقص النيل واشتدَّ القيظ هبطت مياه البحيرة حتى ان القوارب لا تقطعها الَّا بالعناء لقلَّة الماء. امَّا اذا فاض النيل رأيت بحيرة المنزلة طاغية تشغل مياهها نحو ١٢٠٠ كيلومتر مربَّع لا يطفو فوق المياه سوى بعض جزائر عليها آثار قديمة وكان في موقع هذه البحيرة سابقًا بلاد عامرة وجنَّات فيحاء غمرتها مياه بحر المحيط فصارت بحيرةً متَّسعة الافنـاء ولم ينجُ من طغيان هذه المياه الَّا امكنةٌ قليلة لعلوّ تربتها منها جزيرتا تنيس وتونة

وقد ورد ذكر هذه البحيرة في مروج الذهب للمسعودي فروى خبرها وهو يدعوها بحيرة تنيس قال:

« كانت بحيرة تنيس ارضًا لم يكن بمصر مثلها استواء وطيبَ تربةٍ وثروةً وكانت جنانًا ونخلًا وكرمًا وشجرًا ومزارع وكانت فيها مزارع على ارتفاع من الارض ولا احسن اتّصالًا من جنانها وكرومها ولم يكن بمصر كورة يقال انَّها تشبهها الَّا الفيُّوم ولا اخصب واكثر فاكهة ورياحين من الاصناف الغريبة وكان الماء منحدرًا اليها لا ينقطع عنها صيفًا ولا شتاء يسقون منهُ جنـاتهم اذا شاؤوا وكذلك زروعهم وسائرهُ يصبُّ الى البحر من سائر خلجانهِ ومن الموضع المعروف بالاشتوم وقد كان بين البحر وبين هذه الارض نحو مسيرة يوم . . . فلم يزل البحر يزيد ماؤهُ ويعلو ارضًا فارضًا في طول على ممرّ السنين . . . فلمَّا مضت لديقلطيانوس من ملكهِ مائتـان واحدى وخمسون سنة (اعني سنة ٥٣٢ م) هجم الماء من البحر على بعض المواضع التي تسمَّى اليوم بحيرة تنيس فاغرقها وصار يزيد في كل عام حتَّى اغرقها باجمعها فما كان من القرى التي في قرارها غرق وامَّا التي كانت على ارتفاع من الارض فبقيت منها تونة وسيمود وغير ذلك ممَّا هي باقية الى هذا الوقت »

وكان سيرنا في البحـيرة بين جزيرتي تنيس وتونة شمالًا وبلدة المطريَّة الحافلة بصيَّاديها يمينًا حتى وصلنا بعد نحو خمس ساعات مدخل نهر المعزّ وهو الخليج المعروف في الازمنة السالفة بخليج صان (branche tanitique) وهذا النهر في وقت ارتفاع النيل كثير المياه يتَّسع يمينًا وشمالًا فيغمر بمياههِ ارضًا واسعةً. امَّا في فصل الصيف فتقـلّ

مياهُه وينحصر في حدود ضيّقة . ومياهُه عند مصبّهِ في بحيرة المنزلة لا تصلح للزراعة لاختلاطهِ بالمياه المالحة . وانّما تُرى فقط على ضفّتيهِ بعض الاعشاب كالاسل والقصب

وبعد ان واصلنا السير مدّةً بلغنا الى حيث ينقسم نهر المعزّ قسمين وكلاهما يصلح للملاحة ولنقل السلع وكان سفرنا على القسم الشماليّ وهو الذي يوصل بين الزقازيق والصلاحيّة وصان والمطريّة فينقل بينها صادرات مصر وارداتها . وكنّا لا نلقى في طريقنا الّا بعض زوارق للعربان يسلّم اهلها علينا اذا رأونا بجلبةٍ عظيمة فنقابلهم بالمثل

وبعد ساعةٍ من الزمان بلغ بنا المسير الى المزدرعات التي تزيّن هذه الجهات وهي كلُّها خصبة يغلب عليها الارزّ والقطن وضروب الحبوب تراها تنبسط كخميلةٍ على جانبي النهر الى مسافات بعيدة وراءها رملُ الصحراء . ولم تزل صاعدين النهر الذي كان ضيقاً كمرآة وهو يتّسع حيناً ويتزوي حيناً آخر في ضمن حدودهِ وتارةً يتشعّب شعباً فتبرز من وسطهِ جزائر خضراء رائعة المنظر . وبينما كنتُ اعاين هذه المشاهد العجيبة اذ لاح لي من سطح السفينة ضحضاح من المياه تزينهُ بُقع خضراء وادواح الشجر بينها اعشاب طويلة فسألت صاحبَيّ القارب : « ما اسم هذه البحيرة » فاجابا : ليس ثمّت بحيرة ولا مياه ولا اشجار انّما هذا السراب . فعرفت اني مخدوع كما خُدع قبلي كثيرون من اهل الاسفار . ثم جعلت اسرّح الطرف نحو الآفاق فلا ترى عيني الّا الرمال الجرداء . وبقينا كذلك حتى اصيل النهار فرأينا عند الافق تلّاً مرتفعاً ظهر لنا في وسط تلك البادية القفرة كانهُ سلسلة جبال . فسألت الملاّحَيْن : او هذا الجبل ايضاً من ظواهر السراب . قالا : كلاّ لكنهُ ليس بجبلٍ وانّما هو تلّ صان الذي نقصدهُ . فشخصت عيوننا نحو تلك الآكام لعلّنا نميّز شيئاً من اخربة المدينة التي عاش فيها موسى كليم الله . الّا انّ التلّ كان بعيداً يقتضي لقطع المسافة الباقية لبلوغهِ خمس ساعات على الأقل

فاسبل علينا الليل سترهُ قبل ان ندرك صان الحجر الّا انّ البدر طلع بعد قليل وانار النهر باشعّتهِ الفضيّة وكسا المزدرعات بنورهِ الكمد فانبعث امامنا عالمٌ جديد اغربُ من ظواهر السراب كانت مناظرهُ تخلب عقولنا وتسبي ألبابنا . ولم تزل ابصارنا ترعى هذه المشاهد الفتّانة حتى بلغنا في جوف الليل قرية صان الحجر بعد اربع عشرة ساعة من السير المتواصل . والقرية على ضفّة النهر عند سفح التلّ . فرست ذهبيّتنا عند

طرف الضيعة حيث يتصل بالنهر اسفل اطلال التلّ وردومهُ غائصةً في المياه

وما ادركنا صان حتى شعرت بنا كلابها واخذت بالنباح فايقظت جلبتها القرويين فقدم علينا بعضهم ليروا ما الامر ولمّا علموا انَّ قدومنا لسلام هدأت الثأمة وعاد القوم الى بيوتهم. وكان هناك يوناني صاحب نُزُل دعانا لنقضي الليل في فندقهِ فابينا وآثرنا النوم في الذهبيَّة لكنَّ عينيَّ لم تكتحل باغتماض

ولمَّا تبلّج الصبح سمعت صوتًا في مياه النهر فرأيت واذا بفتاتين من صان تغتسلان قبل طلوع الفجر فذكّرني ذلك بفتاة فرعون التي خلّصت في هذه الامكنة موسى الطفل من الغرق

ثم ايقظتُ رفقتي فرقينا معًا التلّ باكرًا لنبلغ قمّتهُ قبل طلوع الشمس. فكنَّا نسير في طريقٍ غبراء محمرّة التربة تتكوَّن من دقائق الآجرّ حتى وصلنا بعد مدَّةٍ الى انقاضٍ وبقايا جدران متداعية وآثار اعمدة ومسلاَّت وتماثيل ودُمىً ابي الهول وكلّ ذلك خِلط مِلط في حالة يُرثى لها. فقطعنا هذه الآثار دون ان نتلبَّث في فحصها والبحث عنها لئلَّا يفوتنا منظر طلوع الشمس. وكانت طريقنا فويق هذه الاطلال حوجةً صعبة المرتقى ادَّت بنا بعد قليل الى ذروة التلّ اهتدينا اليها ببناء من الحجر المنحوت يُرى هناك فانتظرنا بقرب هذه البناية بزوغ الشمس

وكان اديم السماء صافيًا لا يشوبهُ بخار او سحابة فوجّهنا الابصار الى الشرق فلم يلبث قرن الشمس ان بدرّ فيجلّل بانوارهِ الساطعة كل البقاع التي حولنا. ولم يزل ملك النهار يتصاعد شيئًا فشيئًا حتى ظهر بكل جلالهِ منيرًا بسراجهِ الوهَّاج حاضرة الفراعنة التي اصبحت اليوم اثرًا بعد عين وخرابًا بعد عمران فبقينا هنيهةً لا نفوهُ ببنت شفة وكُلُّنا عيون شاخصة تكاد تلتهمُ هذه المناظر التهامًا

ثم جعلنا نتجوَّل فوق مشارف التلّ فاذا هو يتَّسع عرضًا ويستطيل الى جهة الجنوب. وكان مع احد رفقتي ميزان لتعريف العلوّ فرصدهُ فاذا هو يدلّ على ثلاثين مترًا بكسر. وكانت سهول طانيس القديمة تمتدّ عند اقدامنا فتذكرنا ما جرى فيها من الضربات العشر كما ورد في الكتاب الكريم (المزمور ٧٧ ع ١٢) حيث قال: وصنع (الربُّ) المعجزات امام آبائهم في ارض مصر في بقعة صوعن (צֹעַן). وصوعن هي صان او طانيس. وقد كرَّر ذلك في المزمور عينهِ (ع ٤٣)

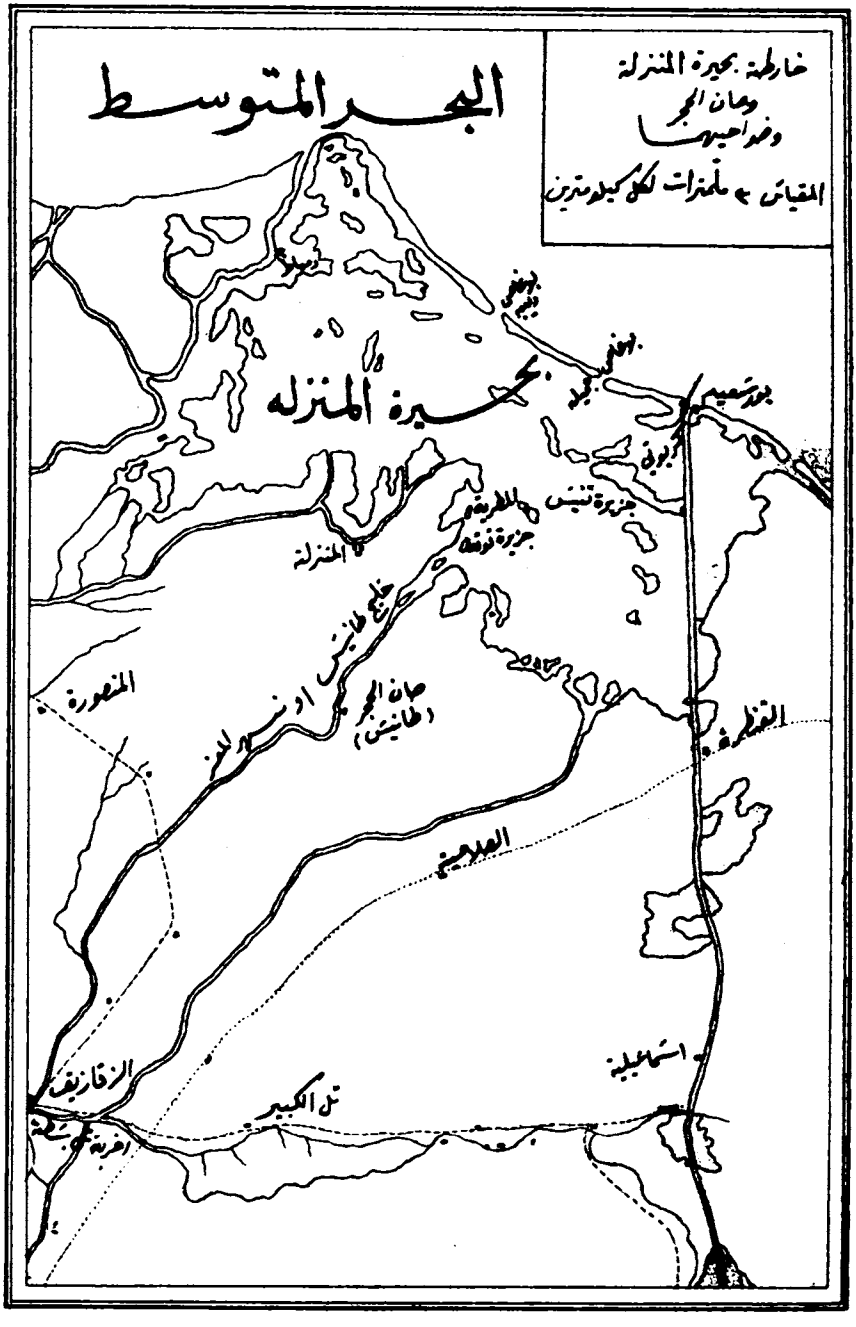
خارطة بحيرة المنزلة
وعمان البحر
وضواحيها
المقياس ٥ سنتمترات لكل كيلومترين
البحر المتوسط
بحيرة المنزله
بحر تنيس
جزيرة تنيس
جزيرة فوقه
المنزلة
خليج طانيس او دمياط
عمان البحر (طانيس)
المنصورة
القنطرة
العباسية
اسماعيلية
الزقازيق
تل الكبير
العريش

ثم حاولنا النزول من هذا الجانب فما تمكنا من الامر الّا بعد العناء والمشقّة وكانت ارجلنا تغوص في تراب عميق ضارب الى الصفرة يدخلهُ قِطَع من الخزف والزجاج المكسَّر وكلُّ التلّ على هذه الصورة

وان سأل السائل أوبلغت صان هذا العظم والاتساع حتى انَّ اخربتها صارت عبارة عن جبلٍ ؟ اجبنا مع العلّامة مسبرو: « ان مدينة صان لم تكن ذات شان اذ انَّ مجمل ابنيتها كان منحصرًا في دائرة تشمل بعض البيوت المتوسطة البناء كان يسكنها اعيان البلد وعُمّال فرعون. وكنت ترى على رُبى قليلة الارتفاع تتركّب من ردوم سابقة عدَّةَ ابنية اشبه باكواخ خفيفة متلاصقة ببعضها لا يفصلها الّا ازقّة ضيقة وكلُّها من اللبن المجفّف في الشمس او الآجرّ. تلك كانت مدينة صان. وانّما كان لها هيكل عظيم الشأن شاهق البنيان تتجهُ نحوهُ كلّ حركة السكّان لِما يُقام فيهِ من المناسك الدينيّة لاكرام آلهة المصريين والتل يتركّب بالخصوص من بقايا هذا الهيكل الفخيم ». على ان من نظر الى الآثار الباقية من صان وهيكلها لا يتمالك من العجب لرونق هذه العاصمة وحضارتها وعظم ملوكها

وبعد ان أجلنا الطرف في كلّ هذه المآثر وفكّرنا المخيلة باحياء سالف الاعصار وذكر قاعدة الفراعنة على عهد بني اسرائيل تركنا من التلّ لنبحث عن الاخربة التي اجتزنا بها صباحاً دون ان نتأمّلها. وما يمكننا ان نقول عنها بوجه الاجمال انَّ هذه الآثار قد استولى عليها الدمار فلم يبقَ منها الّا حطامها. وذلك قول يصحُّ في جميع آثار وادي النيل كتلّ بسطة وبلوزة وطانيس بخلاف عاديّات الصعيد فانَّ يد الدهر لم تُصبها بكبير اذًى. امّا هيكل صان فترى بقاياهُ مجندلةً محطّمة في حيص بيص فتعثر رجلك تارةً بصفّ من نحيت الحجارة وتارةً بردوم من الانصاب والمسلّات القديمة وحيناً بقطع من التماثيل الضخمة او الاشخاص الممثّلة ابا الهول وكلُّ ذلك باختلاط لا يفي بهِ الوصف وهي في اسوإ حالة لا يمكن الناظر ان يتحقّق ما كانت عليهِ هذه الآثار في اوّل تنصيبها

وممّا لحظناهُ بقايا إلهٍ جبّار منحوت بحجر الصوّان المانع فرأسهُ قد قُطع من شاوهِ وكذلك ترى ذراعيهِ وساقيهِ مكسورتين وضخمهُ عجيب ولو كان سالماً لعُدَّ شبيهاً في كبرهِ بدُمى الالهة التي تُرى في مِنف والاقصر. وعندنا انَّ هذا التمثال هو الشخص

الذي امر باصطناعهِ رعمسيس الثاني من حجر واحدٍ وجعلهُ من اكبر تماثيل مصر

وفوق ربوةٍ ليس بعيدًا عن هذا الأثر تُرى مسلّةٌ كبيرة ممتدَّة على الحضيض وهي مكسورة الى قسمين. يبلغ طولها من ١٨ الى ٢٠ متر وعرض كل وجهٍ من وجوهها الاربعة نحو متر و٦٠ سنتيمترًا. وعلى احد هذه الوجوه مكتوب بالحروف الهروغليفيَّة اسم رعمسيس الثاني والقابهُ فيدعى فيهِ: «ملك الشمال والجنوب ' راع أُسر مات سوتيب ان راع ' ابن الشمس رعمسيس صديق عمون وملك الارضَين». وعند لحف المسلّة نُقشت صورةَ الملك وهو يقدّم قربانًا لالهٍ طُمست سحنتهُ

وعلى مسافة بعض خطوات من هذه المسلّة مسلّتان أُخريان على شبه الاولى في كبرها وهما كذلك مكسورتان في وسطهما وعندهما تمثال آخر عظيم لكنهُ لم يُحطَّم كالتمثال السابق وصفهُ. وتُرى في حِجْره صورة امرأة صغيرة القامة منحوتة في الحجر نفسهِ. وليس بعيدًا من هذه الدمية تمثال ثالث اصغر منهما وهو حسن النقش سالم في قسمهِ الاعلى امَّا سُوقهُ فقد كُسِرت. وعلى صدرهِ شعار رعمسيس الثاني. لهُ هيئة كهيئة تمثال سفارة الشهير

وفي شمالي هذا الشخص استلفت انظارنا حجرٌ من الصوَّان الاحمر منقور على شكل صندوق وهو ناووس او مصلّى صغير تكسَّر احد اطرافهِ فيُرى داخلهُ وهو منقوش وعلى كل وجوههِ كتابات وتصاوير فاخذت رسمهُ بالتصوير (ص٤٨٥). وقد مُثّل فيهِ الملك رعمسيس ثلاثًا فتراهُ يقدّم القرابين للاله اتوم او تمو اي الشمس قبل بزوغها وللاله خُبْري اي الشمس الطالعة وللاله هُورس بن اوزيريس. وجُعل الاله اتوم في الوسط وعلى رأسهِ الاكليل المزدوج اشارة الى ملكهِ على مصر العليا وعلى وادي مصر وفي يدهِ اليمنى رمز الحياة وفي شمالهِ الصولجان. وبازائهِ الملك رعميس يزين هامتهُ ايضًا الاكليلُ المزدوج تراهُ يقدّم لمعبودهِ تقدمةً وهي طلمةٌ على شكل مخروط كالهرم. وامام الاله قد كُتب « تموسيد اون » واون هي مدينة عين شمس. وعند اقدام الملك ما نصُّهُ: « تقدمة خبزٍ سميذ لينال الحياة من الاله » واسم الملك والقابهُ مدوَّنة امامهُ ووراءهُ فيقرأ امامهُ: « سلطان الارضَين ' راع أُسرمات سوتيب ان راع ' (لقب الملك) رعمسيس ». ومن ورائهِ قد كُتب: « ملك الصعيد ومصر السفلى ' راع أُسر مات سوتيب ان راع ' ابن راع رعمسيس تموسيد اون »

ناووس (٧٥٥ ج) او مصلّى رعمسيس الثاني في طانيس (راجع الصفحة ٤٨٧)

وعلى اليمين رُسمت صورة رعمسيس متوّج بالتاج الملكي امام الاله هورس يقدّم لهُ اثنين وعلى راس الاله يُرى قرص الشمس مع شعار الاله راع. وجسم الاله كجسم انسان امّا راسهُ فراس باشق وهو يمسك في يمناه رمز الحياة وفي يسراه صولجان الملك وبازائهِ قد كُتب: « هورس إله الارضَين سيّد السماء ». امّا الملك فاسمهُ والقابهُ كما في الصورة السابقة الّا انهُ قد بُدِل اسمهُ « تمو سيّد اون » باسم « صديق هورس »

وفي جهة الشمال صُوّر الاله خبري (اي الشمس الطالعة) على هيئة بشريّة فرأسهُ مكشوف تعلوهُ دائرة الشمس معلّقة فوقهُ. وامامهُ الملك رعمسيس يقدّم لهُ اثنين. وبقيّة التصاوير والكتابات لا تختلف شيئاً عن صورة اليمين

وفوق هذه الصور الثلاث على طول الناووس كتابة درس اوّلها وآخرها فلم يبقَ منها سوى ما ترجمتهُ: «... تمو قربان للاله تمو من قبل السلطان ملك الشمال والجنوب ' راع أسر مات سوتيب ان راع ' ابن راع صديق عمون رعمسيس لا زال ملكك زاهياً ناميا الى الابد »

وفي سطح الناووس من اعلاهُ خمس كتابات تنتهي كلُّها بهاتين اللفظتين « رعمسيس المُحبي »

هذا ما بقي سليماً من آثار صان. وليس الباقي كما سبق القول الّا كسرًا وشقفًا لا يُتركّب منها نصبٌ كامل (لهُ بقيَّة)

أَقدم شعر عند العرب

لحضرة الكاتب العالم والباحث المتفنّن الاب انستاس الكرملي

اطلعني بعض الاصدقاء على المجلّد التاسع من مجلّة الهلال. وبينما كنت اتصفّحهُ وقعتُ فيهِ على مقالةٍ لصاحب المجلة في أُميَّة بن ابي الصلت وقد افتتح ترجمة هذا الشاعر الجاهليّ بلمعة عن حالة العرَب واغتنم قُبيل الاسلام فقال حرسهُ الله (عن الهلال ٩ : ٤٥١):

« لم يَمُرَّ بجزيرة العرب على عهد الجاهلية عصر نهض فيهِ العرب مثل نهضتهم في القرن السادس للميلاد. وهو القرن الذي تقدَّم ظهور الاسلام. وكانوا قُبَيْل ذلك غارقين في الجهالة والخمول لا يعرفون غير الغزو والقتل. وخصوصاً في بلاد الحجاز فاننا لم نسمع فيها قبل ذلك القرن الّا ببضعة شعراء ولم يكونوا مجيدين. فاشعر شعراء الجاهليَّة نبغوا في القرن السادس وما بعدهُ. ويؤخذ من مراجعة تراجم اولئك الشعراء ان الشعر العربي زَهَا اولًا في اليمن ثم في الحجاز ونَجْد لانَّ اقدم من وصل الينا اخبارهم انَّما هم من اليمن كالبرَّاق ولَبيْلى العفيفة وكلاهما من اهل القرن الخامس وهما اقدم شعراء الجاهلية » انتهى المقصود من ايرادهِ

قلنا: لا نعلم على ما يدعم حضرة منشيء الهلال كلامهُ في قولهِ الاخير: « ويؤخذ من مراجعة . . . الخ » فان كان زعمهُ هذا منقولًا عن أُدباء الافرنج فاننا قد بحثنا في كتبهم التي بايدينا لنتدبَّر صحَّة القول فلم نتوفَّق الى العثور على ما عثر ولعلَّ السبب في ذلك قلَّة الاسفار الافرنجيَّة التي بايدينا. الّا أنَّنا وان سلَّمنا ان المؤلف اخذ كلامهُ عن الافرنج فانهُ لا يخلو من مغامز وليس كل ما يقولهُ هؤلاء الباحثون يكون بمعزل عن الانتقاد. امَّا اذا كان كلامهُ مأخوذًا عن كتبة العرب فان هؤلاء لسان واحد على مخالفتهِ. وقد رأينا غير مرَّة ان حضرة صاحب الهلال كثيرًا ما يقع على بعض الامور